

النص والكفاءات التداولية

د. بن الدين بخولة*

الملخص:

يرتبط التأويل بالإمكانات التي يوفرها المجال الاستقبالي للسان ما، وهذا الربط هو ما يؤدي إلى التأويل والطريق التي بها يمكن القبض على المعنى وتحصيله باللفظ المعبر، وعلى هذا يكون "المجال اللساني لغة شرطاً في الإمكانية التي تحمل التأويل إلى اللغة وتبرئ استقبالية المعنى الذي يتأسس وجوداً عندما تتعاین ألفاظه في السياق اللساني الخطاب، ويمثل التأويل مصطلحاً مهماً في تعدد المعنى، وإيقاظ دلالاته المتخفية خلف النص، ويجتمع المؤول الخلفية النصية وتوليف البياض وتأسيس مخطط فهم جديد يعنى بأقاليم النص وآليات قراءته وتحليله،

Résumé

Le domaine linguistique de la langue est une condition de la possibilité qui porte l'interprétation dans la langue et prépare la réceptivité du sens qui est établi par la présence lorsque le sens du sens est établi. L'interprétation du sens du texte et la synthèse de la blancheur et l'établissement d'une nouvelle compréhension du sens des régions du texte et des mécanismes de lecture et d'analyse,

كلمات مفتاحية: النص؛ الخطاب؛ التأويل؛ السياق؛ اللسان؛ اللفظ

لابد من توفر الكفاءات التداولية لبلوغ القصد من النص، فتأويل المرء لنص ما يتوجب عليه تطبيق كفاءات متنوعة على مختلف العناصر الدالة المدرجة في المتتالية النصية، حتى يتسنى له استخراج مدلولاتها، وهو أمر غاية في التعقيد، حيث تتدخل فيها في آن واحد كفاءات غير متجانسة تتصف مسألة تحديد مجالاتها وكيفية تدخلها بالدقة البالغة¹ ولعل ما استوجب حضور هذه الكفاءات هو قصور البنية الشكلية للنص على تبليغ القصد، فالكلام الواحد "يختلف فهمه بحسب حال السياق، وبحسب حال المخاطبين، وبحسب غير ذلك، كالاستفهام لفظ واحد ويدخله معان آخر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك، وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها، ولا دليل على المعنى المراد إلا الأمور الخارجية، وعمادها مقتضيات الأحوال، وليس كل حال ينقل، ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة فات فهم الكلام جملة أو فهم شيء منه"²

وليست الكفاءات التداولية نسقا بسيطا بل هي أنساق متعددة متألّفة فهي تتألف من خمس ملكات على الأقل وهي: الملكة اللغوية، والملكة المنطقية والملكة المعرفية، والملكة الإدراكية والملكة الاجتماعية، وكل ملكة مرتبطة بكفاءة منها تكملها وتحدد عالمها، وقد عرفها "دايك" على النحو التالي³:

أ-الملكة/الكفاءة اللغوية: قدرة مستعمل اللغة على إنتاج وتأويل عبارات لغوية ذات بنيات متنوعة ومعقدة في مواقف تواصلية مختلفة. لأن صيغة الخطاب اللغوية المكونة من أدوات معينة، وسياقه التلفظي يحيلان على المعنى الحرفي، غير أن القارئ تفتن إلى جزئيات الخطاب اللغوية وما تضمنته من معان خفية.

ب-الملكة/الكفاءة المنطقية: تمكن مستعمل اللغة من اشتقاق معارف أخرى بواسطة قواعد استدلال تحكمها مبادئ المنطق الاستنباطي والمنطق الاحتمالي، ما ارتبط بالمعطيات اللغوية والسياقية لفهم القصد، كما تمكنه من الاستعانة بالعملية الاستدلالية التي تعدّ الأساس الجوهرية لتأويل النص، وهي "عملية منطقية لربط المعطيات اللغوية والسياقية

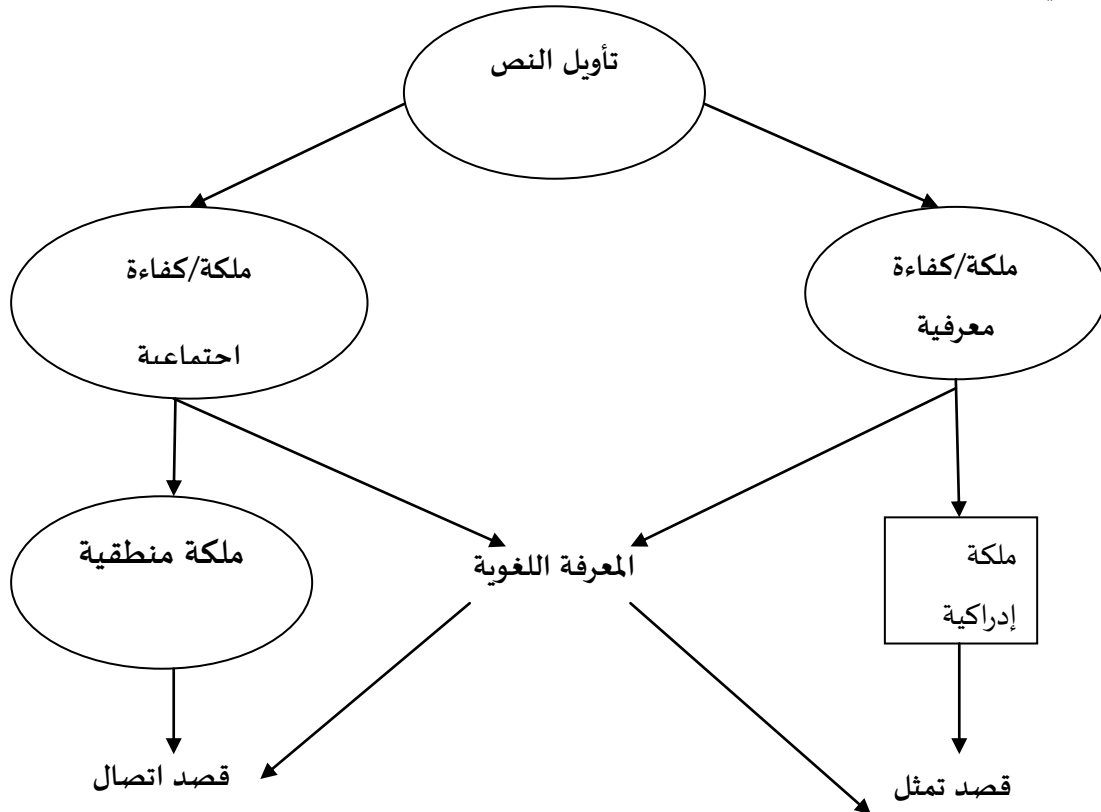
* - أ. بن الدين بخولة، قسم اللغة العربية، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، الجزائر

والمحادثة التداولية لإنشاء الدلالة، وفهم القصد، فكي نستدل علينا الحساب والاستنتاج انطلاقاً من عناصر دالة متنوعة، ويقع مفهوم الاستدلال أساساً من جهة المتقبل، غير أنه ليس مجرد تفكيك، كما أنه لا ينفصل عن الباث بما أن الدلالة هي حصيلة عمل مشترك بين طرفي الخطاب في السياق"⁴

ج- الملكة/الكفاءة المعرفية: وهو رصيد مستعمل اللغة من المعارف المنظمة، وقدرته على اشتقاق معارف من العبارات اللغوية وتخزينها واستحضارها لتأويل العبارات اللغوية. تمكنه من معارف متنوعة أسهمت بشكل فعال في تأويل النص، إذ تسهم معرفة القارئ بعادات المؤلف ومجتمعه بتأويل النص، وهو ما يشكل سياقاً ثقافياً يعين على فهم العبارات اللغوية؛ ونقصد بالسياق الثقافي للنصوص اللغوية "كل ما يمثل مرجعية معرفية لإمكانية التواصل اللغوي، وبعبارة أخرى إذا كانت اللغة تمثل مجموعة من القوانين العرفية الاجتماعية بدءاً من المستوى الصوتي، وانتهاءً بالمستوى الدلالي فإن هذه القوانين تستمد قدرتها على القيام بوظيفتها في الإطار الثقافي الأوسع"⁵ ويشتمل السياق الثقافي على "الاعتقادات المشتركة بين أفراد البيئة اللغوية، والمعلومات التاريخية، والأفكار والأعراف المشاعة بينهم، فهذا السياق هو المعين على فهم عبارات مثل "فلان جبان الكلب"، و"تجمد بينهم الجليد" ونحو ذلك مما هو مرتبط بالحياة الاجتماعية، أو له صلة بثقافة المجتمع الدينية أو السياسية أو الاجتماعية بوجه عام".⁶

د- الملكة/الكفاءة الإدراكية: وهو إدراك مستعمل اللغة لمحيطه ليشتق منه معارف لتأويل الخطاب وإنتاجه، فإدراك القارئ لقصد النص ينتج بوساطة إدراك مواز لمحيطه، لأن حمل اللفظ على ظاهره أمر متعذر، وهو ما يعني اختفاء القصد وراء اللفظ، لذلك يسعى القارئ المحلل إلى معرفة الدلالة الضمنية للخطاب، ليصل إلى المعنى الضمني، المرتبط بتكوين هذه المعرفة، والنابع من ثقافة الناص الموسوعية.

هـ- الملكة/الكفاءة الاجتماعية: لا يعرف مستعمل اللغة ما يقول فحسب، بل يعرف كذلك كيف يقول ذلك لمخاطب معين في موقف تواصلي ما قصد تحقيق أهدافه التواصلية:



وفي نهاية الأمر، يمكن القول أن هذا النموذج الإنتاجي يؤكد أن لا أهمية لعنصر من هذه العناصر على الآخر ولا أشد تجريدا منه، ولا ينفصل مستقلا على المكونات الأخرى، فكل المكونات الثلاث تتداخل خيوطها جميعا مكونة النسيج النصي؛ فنحن لا نملك حق القول أن لهذا الإنتاج-مهما كانت صورته أو طبيعته، مكونا فكريا دون أن يكون له مكون تبادلي أو نصي أو لذلك مكون نصي فقط؛ لأن كما قلنا سابقا تتداخل المكونات الثلاث وتتجاوز يتناغم متناهي على مساحة الإنتاج النصي، إذ بالرغم من شعورنا بالتمايز فيها، إلا أنه يصعب بشكل يقترب إلى الاستحالة التفرد لأحد هذه المكونات بمهمة إنتاج النص، بدون الحاجة إلى المكونين الآخرين، الذين يدعيانه في سبيل تحقيق هذا الغاية، التي هي كذلك غايتها؛ ففي كل نص تعدد الوظائف والمكونات التي لا يجب النظر إليها، على تعددها- منعزلة، ولا لأي عنصر منهما بمعزل عن الآخر؛ باعتبار أن النظر إلى هذه العناصر من زوايا متعددة، يسهم في التفسير الكلي للنص⁷ وهو البحث في وظيفة النص، ووظيفة عناصره.

ونشير هنا. إلى أنه في الاتصال المكتوب يختلف الكاتب والمتلقي عن بعضهما البعض زمانيا ومكانيا، كما أن عمليات إنتاج النص واستقباله لا تجري استنادا إلى التفاعل مباشرة؛ بل التعاقب بوصفها عمليات تتم عبر تباعد زمني، فلا بد من وجود عمليات التفاعل وتداخلها مع بعضها البعض، حتى ينشأ تعاقب مكونات التفاعل، وبدلا من اتصال القرب ينشأ اتصال البعد، وعلى ذلك فالكاتب والمتلقي ينجزان نشاطاتهما الاتصالية في سياقات جزئية مختلفة، لكن الاتصال من بعد لا يلغي التفاعلية فالشركاء يتفاعلون أيضا بواسطة النصوص المكتوبة بعضهم مع بعض، ويؤثرون في بعضهم البعض، وانطلاقا من هذه الخصوصية تنتج تغيرات أساسية سواء في إعداد النص، أو في فهمه⁸.

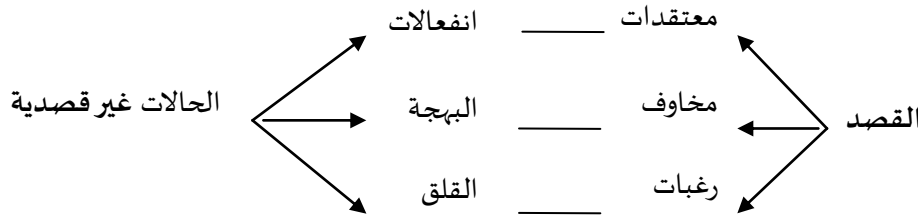
وأمام هذا التعقيد الإنتاجي ومعرفة الحقائق الاستيمولوجية لعملية إنتاج النص، على قارئ النص أن يجابه هذه العمليات بعمليات أكثر تعقيدا تجعله يدرك حقيقة الفعل الذي يمارسه عليه من شرح وتفسير وتأويل.

1- النص بين القصد وفعل التأويل:

إذا كان جميع أفراد الجماعة اللغوية، قادرين على إنتاج نصوص نظريا أو افتراضا على الأقل، فإن القليل هم الذين يملكون كفاية نصية لانجاز نصوص مقبولة أدبيا لذلك نجد فان ديك وجماعته يتحدثون عن وجود كفاية نصية (compétence textuelle) تسمح لمراسل النص أن يفهم ويؤول عددا لانهايا من الجمل المختلفة ولهذا فإن كفايته نصية، ذلك لأننا، سب فان ديك لا نتوصل بالجمل، بل عن طريق النصوص⁹ ويجب التعامل مع النص ككلية منظمة تراوح بين المحلي المنتظم في كلمات وجمل والكل المشكل في مستوى البيانات العامة للنص، بالاشتغال في محاور نظامية واستدلالية وارتباط هذه البنيات مع بعضها البعض عن طريق الاتساق والانسجام ومراعاة مبادئ القصيدة والمقبولية والإخبارية والموقفية والتناسية، من أجل تكوين شبكة من العلاقات المتفاعلة فيما بينها، مستمدة نوعا ما من الدنيا الاتصالية الممتدة عبر مستويات متداخلة.

وتتداخل البنيات اللغوية في المتتالية النصية المرتبطة بسياق معين، وظروف معينة ترجح مقبولية نص ما، وعليه يقترح كل من "آن روبول وموشلار" نوعين من المقاصد؛ الأولى متصلة بالقول، وهي المقاصد الموضوعية، والثانية مقاصد تتصل بالخطاب، وهي المقاصد الإجمالية، أي أن مفاهيم لغوية معينة مثل المعنى تقبل التحليل في ضوء مجموعة من المفاهيم النفسية الأساسية كالمعتقدات والرغبات والمقاصد¹⁰.

ذلك "إن القصيدة صفة للحالات العقلية والحوادث التي يتم بها التوجه إلى موضوعات العالم الخارجي وأحواله أو الإشارة إليها"¹¹ فإن كانت لدي رغبة لا بد أن تكون رغبة في حدوث شيء أو أن شيئا يجب أن يحدث وحين يكون لدي قصد معين يجب أن يكون قصدا لفعل شيء ما، وفق المخطط التالي:

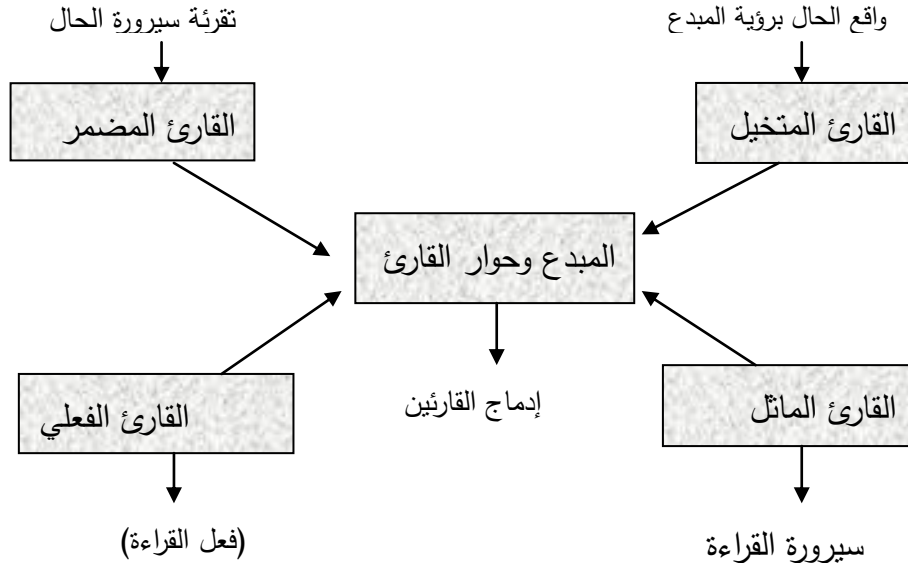


وعليه، يعد القصد مجرد صورة من صور القصدية، وليس له وضع خاص؛ فالنص تصميم (dising) أو خطة (plan) في عقل المؤلف / منتج النص؛ على اعتبار منتج النص يملك معارف عن الكم الذي ينبغي أن يحتويه النص من معلومات في حالة معينة، حتى يستطيع السامع أن يعيد قصده.

ولعله الأمر الذي أشار إليه ابن طباطبا: "للشعر أدوات يجب إعدادها قبل مراسه وتكلف نظمه..فمنها التوسع في علم اللغة، والراحة في الفهم والإعراب والرواية لفنون الأدبي، والمعرفة بأيام الناس وأنسابهم ومناقبهم ومثالبهم والوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر، والتصرف في معانيه، وفي كل فت قالت العرب فيه... وجماع هذه الأدوات كمال العقل الذي تميز الأضداد، ولزوم العدل وإيثار الحسن واجتناب القبح، ووضع الأشياء مواضعها"¹² فـ"إنتاج النص" عملية معقدة، تمتد بفروعها على عناصر عديدة، وعلى مقومات لا حصر لها وعلى خصائص عينية مختلفة؛ لعل أهمها تلك الخاصية التي لاقت نوعاً من الإجماع وهي "الكفاءة" (compétence)، أو قدرة الإنسان على استعمال اللغة من خلال معرفته بقواعد لغته، باعتبارها "نظاماً عقلياً تحتياً قابلاً خلف السلوك الفعلي"، أي الأداء.

ليغدو تأويل النص وفهمه عملية مرتبطة بما يخرجه من رمزية تعيد تشكيل رؤيتنا للذات والعالم، وتساعد على تقديم فهم جديد لها، وحسب ريكور، لا يتحقق الرمز ولا يكون إلا إذا تلاءمت العبارة اللسانية بمعناها الثنائي أو معانيها المتعددة مع نشاط التأويل، والذي يشير هذا النشاط هو "بنية قصدية لا تتألف من علاقة المعنى بالشيء، ولكن من خلال معمارية المعنى وعلاقة المعنى بالمعنى، والمعنى الثاني بالمعنى الأول، على أن تكون هذه العلاقة باسم المماثلة، وأن يختفي المعنى الأول حيث يظهر المعنى الثاني، إن هذا النسيج هو الذي يجعل التأويل عملية ممكنة مع أن حركة التأويل الفعالة وحدها قادرة على أن تردها ظاهرة"¹³

فالهدف من النظرية التأويلية فهم المؤلف أكثر مما يفهم نفسه. كما يرى مثله أن "هناك ارتباط وثيق بين الفهم والتأويل، فإذا أردنا أن نفهم شخصاً يجب علينا أن نقوم بتأويل أفعاله وكتابات في عملية واحدة متجانسة"؛ إذ يبقى النص مجالاً لتأويلات محتملة تتجدد باستمرار، فهو عالم يعج ببدايل تتيح للمؤول أن يلج إلى هذا العالم وهو مدمج بمختلف الأدوات التي بها يواجه النص، فيتعدد القارئ في خيال المبدع، وتظهر معالم هذا التعدد في النص، بين قارئ متخيل مضمر وآخر فعلي واقعي، وبينهما مراتب، هما متعددي الأبعاد، ذلك أن المخاطب-في نظرنا- ينقسم إلى: مخاطب أول فعلي، وهو الكائن الواقعي، والذي حصر في سياق لغة الخطاب، بشكل محدد: زماناً ومكاناً، وهو كائن يملك المرونة ليتلون في سياق جديد ممتزجاً برؤى وتطلعات القارئ الجديد، ومرجعياته الثقافية والاجتماعية والفكرية، والثاني هو الضمني /المضمر، وهو الكائن الورقي الموجود في خيال المبدع لحظة الإبداع، ليسكن بين أسطر لغة الخطاب، فينتقل عبر العصور، من قارئ إلى آخر، وليحيا-بزييقية ساحرة- وبقوة في خيال هذا القارئ الجديد:



وهو اعتراف بتعدد معاني النص بتعدد قرائه، مما يجعل القبض على المعنى الذي قصده الكاتب صعباً، إن لم يكن من مستحيلاً، فتشديد معنى النص يتطلب من المتلقي إستراتيجية تأويلية تملأها إشارات المتن، وبالتالي يصير الظفر بالمعنى أشبه بالعثور على ذات القارئ عبر استدعاء المعطل والمكسور فيه لحظة القراءة، مادام زمن التلقي هو زمن ولادة المعنى وإنتاجه، ولأن الانفتاح على عدد من القراء من طبيعة معنى النص، أصبحت مشكلة تملك النص أمراً لا يقل مفارقة عن التأليف، وهنا يتداخل حق القارئ بحق النص في نزاع يولد حركية التأويل برمتها، إذ تبدأ التأويلية حيث ينتهي الحوار¹⁴

أين تشكل اللغة لذاتها نسق المطابق، والعالم هو "آخرها"، لأن اللغة هي واسطة الإنسان في تكوين مفهوم العالم، تشكلها هذه المنظومات باعتبارها صيغ تأويل وحالات من علاقة الإنسان بالوجود/ بالحقيقة، التي هي هدف كل فعالية تفكيرية.

2- القارئ وفعل التأويل:

كما ظهر هذا المصطلح في مجال الدراسات النقدية المعاصرة، والذي برز في مجالات القراءة والتلقي في جميع الخطابات الأدبية واستعمل كأسلوب من أساليب فهم النصوص؛ باعتباره عملية" البحث داخل النص ذاته من جهة، عن الدينامية الداخلية المختبئة وراء هيكله الأثر الأدبي و البحث عن قدرة هذا الأثر على أن يلقي بنفسه خارج ذاته ويولد عالماً يكون بحق هو "شيء" النص. إن الدينامية الداخلية والإلقاء الخارجي يشكلان ما يمكن تسميته نشاط النص، ومن مهمة التأويلية أن تعيد بناء هذا النشاط المزدوج للنص"¹⁵ كون هذا الأخير كياناً مستقلاً بذاته عن المؤلف والمعنى القارئ، وهو أبداً أكثر أو أقل أو غير ما يقوله ويصرح به، انه إمكان للتفكير وبنيته للفهم أو مفترق للحقائق؛ ولهذا فالقارئ الجدير يقرأ دوماً من ما لا يقوله النص، وكل قراءة جديرة تملك مصداقيتها ومشروعيتها، ومشروعية القراءة تستمد من اختلافها لا من تطابقها مع النص المقروء، إذ يشكل التأويل- هنا-مجموع الخطوات التي تقود إلى المطابقة بين رغبة المؤول وممكنات النص الدالة"¹⁶ لأنه لا ينطلق من فراغ، ولا يعتمد فقط على ذاتية المؤول المطلقة في غيبة المعطيات الأساسية التي تواضع وتعارف عليها العلماء لإدراك التظاهرة النصية والتي ساهمت بشكل فعال في تحديد مفهوم للنص، لأن "حضور هذا الوعي في النص لا بد أن يتخذ شكلاً ما، هذا الشكل هو ما نسميه العمل الأدبي، على أن هذا الوعي المتشكل لغوياً يخضع لشروط اللغة؛

فاللغة تحجب واللغة تومئ وتراوغ وتتسع وتضيق"¹⁷، لأن اللغة عندما تغادر نظامها في سبيل الدخول إلى نظام النص؛ فما عادت أداة ناقلة بل باتت ذاتاً مبدعة لما تقول وتلفظ، فنانة لما تخط وترسم، شاعرة لما تحس، وتعبر، ولقد

أصبحت جزء من الأصل ما تم الإخبار بها عنه؛ فالنص على ذلك- فعلا أنيا يؤسس للتاريخ ويؤثر فيه، كما يصنع الثقافة بمجمل حيثياتها ومعطياتها المختلفة والمتنوعة، إنه قوة ضاغطة مضغوطة ذا طقوس متعددة، وتضاريس مختلفة متفردة.

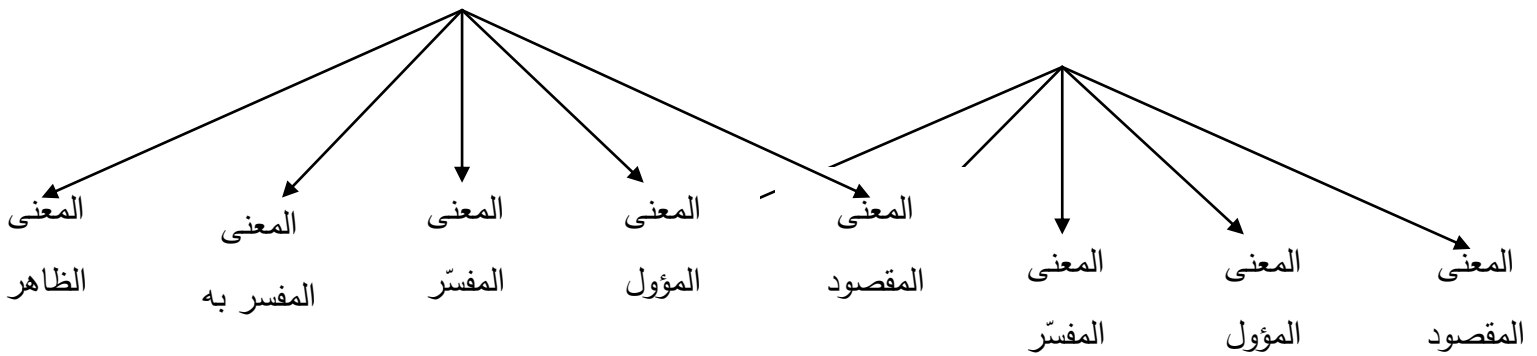
إن التأويل ممارسة تنطلق من نظام النص لتعود إليه، وهي في ذلك لا تقوي على إزاحة حدود النظام، في إعادة إنتاجه من جديد ولا تقوى على رميها بدعوى الاستقامة والإثارة والتميز على خلق حياة من الحياة، نظام من النظام، نص من النص، إنتاج جديد من إنتاج أول، ولكنها تحول هذه المغامرة هذا النظام إلى عناصر لغوية بحيث تبدو منحا دلاليا من منتجات النص؛ ذلك أن "التأويل يقوم على افتراض حوار بين (أنا) القارئ و(أنت) النص لفهم معنى النص الذي يبدأ بفهم أجزاء الوحدة اللغوية لمعرفة معنى الكل في حلقة أو دائرة متصلة"¹⁸

ومن هذا المنطلق يمكن اعتبار التأويل غاية- دائما لعلاقة جدلية بين إستراتيجية "المؤلف" والقارئ النموذجي بوصفه صورة القارئ كما يتوقعها الناص في نصه و"هذا الترابط بين المؤلف والمؤلف باعتبارهما استراتيجيين واضحتين هو ما يقود من الناحية النظرية إلى الترابط بين التفسير والفهم والتأويل؛ بمعنى أن التأويل والتفسير يمكن أن يتخذ النص بنية لهما وليس نتيجة؛ "لأن النص له قدرة على أن يحتفظ بعالم شبه معلق أو شبه مستقل وفي تعلق الكلمات بعضها ببعض بدا لعبد القاهر الجرجاني أنها جسد حي، وأن حيوية الجسد، كمجموع، متميز من حيوية أجزائه"¹⁹

إن التأويل قراءة ما بعد بنيوية تجعل القارئ منتجا ومبدعا بفعل القراءة، ومن ثم الكتابة لنص حديد حقيقه فعل التأويل، هو أساس الفهم، هذا الأخير الذي يبقى دائما إستراتيجية خاصة لاستيعاب التفاعل الحوارى للنص، بوصفه مجموعة نصوص متداخلة تضرب بجذورها في ثلاثية الزمن، ماضيا وحاضرا ومستقبلا، تمكنا من استحضار آفاق المجتمعات القرائية التي تفاعلت على جسد النص المقروء، فحققت تحاورا فيما بينها ينصهر مع أفق القارئ المعاصر، ما ينتج إمكانية فهم العالم من حوله، وفهم ذاته و الآخر معا في إطار البحث في تحقيق كينونة الوجود الإنساني، أنا أقرأ/ أفسر/ أتجاوز/ أتأول فأنا موجود:

المعنى

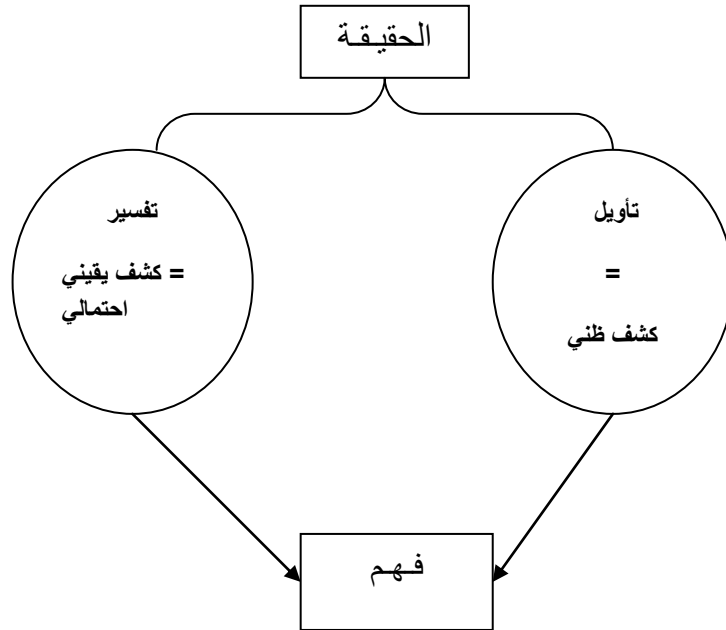
المعنى



إن الفهم في علاقته بالتأويل يستند على عمليات الشرح والتفسير والتحليل والقراءة وهذه العمليات تتخذ أساليب لغوية تفكيكية وغيرها تتوسل بها إلى الفهم؛ لذلك جاز لنا أن نطمئن وفق هذا القول إلى إن التأويل معادل لفن فهم النصوص، إذ إنه ينتج نصا على نص وهو بذلك إعادة فهم تتحقق انطلاقا من وضع النص المبدع موضع سؤال يهدف إلى جعله نصا يمكن إعادة النظر فيه؛ فالتأويل إذن حوار مع النص المبدع، يجعل منه ذلك الحوار موضوع شرح وتفكيك؛ وهو بذلك لا يقر بالنص النموذج. لذلك فالتأويل ينشئ نصا بحثيا يستند إلى آخر إبداعي.

ولغة النص المبدع كثيراً ما تغيب المعنى بالرمز أو بالكناية؛ فيفزع المتلقي إلى ما لا ينتظره فتكون "خيبة التوقع" الحادثة على مزيد النظر والتفكير؛ إذ يقول الجاحظ متحدثاً عن العلاقة بين ما يمكن أن نسميه العلاقة بين الغموض والإبداع. يقول: "لأن الشيء من غير معدنه أغرب، وكلما كان أغرب كان أبعد الوهم؛ وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف؛ وكلما كان أطرف كان أعجب وكلما كان أعجب كان أبعد"²⁰؛ إذ نتبين من خلال هذا القول أن الإبداع لا تنشأ من وضوح المعنى وقربه؛ وإنما على العكس من ذلك هو نتيجة صناعة للكلام تنجو به منى الأغراب. وكل غريب يدعو إلى التأمل فيه حتى يفهم ويعجب به؛ فرغم تقارب الرؤى في حقيقة التأويل إلا أنه قد مر بمراحل ساهمت في محاولة ضبطه. فهناك مرحلة تضادية مع التأويل، وهذه المرحلة سادت فيها القصصية وكل ما له علاقة بسلطة الكلام الفردي، أو بالفكر المطلق، فكانت لها خيارات أما أن تفرض التأويل أو أن يتوقف في نقطة حرجة لا يجوز تخطيها.

ونشير في هذا المقام إلى قول ابن الأثير، الذي يتمثل إلى أبعد الحدود مع الطرح التأويلي المعاصر، إذ يقول: "واعلم أن الأصل في المعنى أن يحمل على ظاهر، ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل...لأنه عدول عن ظاهر اللفظ... فالمعنى المحمول على ظاهره لا يقع في تفسيره خلاف، والمعنى المعدول عن ظاهره إلى التأويل يقع فيه الخلاف؛ إذ باب التأويل غير محصور، والعلماء متفاوتون في هذا، فإنه قد يأخذ بعضهم وجهاً ضعيفاً من التأويل فيكسوه بعبارة قوة تميزه على غيره من الوجوه القوية"²¹؛ ذلك أن سلطة التأويل هي التي تشكل الظاهرة الإبداعية عندما تعتبر أن نتائج التأويل ليست إلا وجهاً من وجوه الحقيقة؛ فالنص يحمل ذلك الخطاب تفسيراً للذات وللوجود وللعالم؛ وهو تفسير يعبر عن فهم أو رفض: قبول أو رد، في إطار محددات التأويل والتفسير، وتحديد العلاقة بينهما، لأن الكشف عن الحقائق ظني في التأويل، بينما يعد قطعياً في التفسير:



إن التأويل قراءة تعيد تشكيل فهمنا للنص في نسق لغوي مختلف عنه؛ فيحدث بذلك الكلام على الكلام، لأنه مشروط باللغة في نتائجها بثقافة المسؤول، ففي التأويل يتدخل المسؤول بصورة مباشرة، ليوجه عملية الفهم ويسجلها بلغته؛ وهذا التداخل يتحكم في قوانين نقدية: أولها القدرة على محاوره النص المبدع ومساءلته مسألة عالمية لتقصي دلالاته وأساليب أدائها؛ وكثيراً ما يتحكم المسؤول إلى ثقافته لتسعه في تنزيل النص في سياق خاص، هو الذي يعطيه هويته التاريخية الفنية، فمعرفة سياق النص تعمل على توجيه نتائج كل تأويل.

يتيح لنا مفهوم المعنى تأويلين يعكسان الجدل الرئيس بين الواقعية والمعنى، إذ يعني المعنى ما يعنيه المتكلم أي ما يقصد أن يقوله، وما تعنيه الجملة، أي ما ينتج عن الاقتران بين وظيفة تحديد الهوية والإسناد. المعنى، بعبارة أخرى تعقل صوري وتعقل مضموني خالص معاً»²² حالة تفسير مستمر واستقراء للوضعية الصورية بين الظاهر والمتضمن ظواهر فهم الجملة بعد تكوين ملفوظاتها تركيباً ذا معنى قد يتجاوز مقصدية الكلام، في تعدد القصد إذا انتقلت التجربة للغة وافترض مسلمات تستند إلى الوجود «وفكرة نقل التجربة للغة هي الشرط الأنطولوجي للإحالة وهو شرط أنطولوجي ينعكس في اللغة بوصفها مسلمة ليس لها مسوّغ محايث، مسلمة نفترض استناداً إليها الوجود الموضوعي للأشياء الجزئية التي ندل عليها، فنحن نفترض سلفاً أن شيئاً ما موجود، لكي نستدل على شيء آخر ونشير إليه»²³ الإشارة التعاقدية بين رموز الأشياء الموجودة سلفاً تمنحنا مؤولات، تمثل علاقتها بالأفعال الذهنية التي تشكل وصفاً يحيل للعناصر الجزئية التي تعد استدلالاً للمركب الكلي، من خلال الوجود الموضوعي المسند لحالة معرفية سابقة.

تترجم العلاقة بين الملكة وأسلوب الفهم منظورا لتصور النماذج التفاعل الروحي المتصل بمفهوم الهرمونيطيقا المعنى الكامن من المعنى الظاهر، والحقائق المضمرة من خلال كوامن المرجعية التاريخية لظهورها مع الإله (هرمس Hermes) الذي كان يعد رسول الإله للبشر أما التأويل يهتم ببيان اللفظ عن وضعه الأصلي إلى المعنى الرمزي في مجازيته وكنائته وأبعاده البيانية في الكلام، والتفسير أكثر اتساعاً في تحليل منطق الأشياء ووضعياتها فيم يتوافق المنهج التأويلي بين منطقتي الفهم والتفسير، لكن الملكة رؤية ذهنية للهرمونيطيقا تمنح البدائل التي يمكنها أن تؤسس قوانين التعاقد مع الوجود في الفعل الخلاق «إن للإنسان ملكة تقدير بدئية كما يقول كانط، ولذلك فإن المعنى موجود أصليا في الوعي البشري وإن مهمة المؤول اشتقاقه من الوضع الأولي، وقد اعتبر هوسرل أن المعنى الملفوظ بنية تجريدية (Une idéalité) لا توجد في المرجع الواقعي ولا في المرجع الذهني، هي إذن بنية لا مرجعية بدئية فاقدة للمحلية (La localisation) ولذلك تمثل الهرمونيطيقا عنده تفعيلاً لطاقت الحياة الخلاقة (Les énergies créatrices de la vie) التي تتخذ من العلامات لإبلاغنا القيم وقوانين الوجود»²⁴ فالموجودات تحمل علامات مرجعية تؤولها المفاهيم المترسبة في الذهن، وتحملها في عائق الفهم المفسر لطاقة الوجود ومدى فاعليته التأثيرية لتنضيد مستوى معين من المقولات الصالحة لتشكيل قانون خاص، يؤهل المعنى في فرض حريته الدلالية والايحائية وتطوير حالات الوعي البشري المنفعل بالوجود.

خاتمة

وخاتمة القول، لم يعد التأويل مجرد فرع معرفي يعني بتفسير النصوص والكشف عن القيم والقضايا والعلاقات التي ينطوي عليها- على اختلافها- بل ممارسة فكرية وقيمة وجودية لا تنفك عن تجربة الإنسان في الفكر والرؤيا، إنه استيعاب للنص من منطق أن هذا الأخير "إبداع للإمكان" في حقيقته الوجودية وبنيته التأويلية، لأنه (النص) يولد وهو يطرح نفسه للتأويل سلطة كامنة في بذرة النص ذاته؛ إلا أن تلك السلطة تدعم عبر القراءة العالمية للنص، لكن هذه السلطة ليست ذات طبيعة استبدادية؛ فكلما قرأت النص جعلته خطاباً مفتوحاً أكثر على عوامل الثراء الدلالي، التأويل باعتباره سلطة تحرر الإبداع وتحرر النقد من أوهام الحقائق المطلقة؛ لأن التأويل فعل الوعي، ورد واع لفعل الإنتاج النصي (الإبداع).

هوامش البحث:

- 1- كاترين كيريرات أوريكيوني، المضمرة، ص. 283
- 2- عيد بلبع، مقدمة في نظرية البلاغة النبوية السياق وتوجيه دلالة النص، ط1، 2008، ص. 194
- 3- عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص. 57
- 4- فيليب بلاتشييه، فيليب بلاتشييه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة: صابر حباشة، دار الحوار، سوريا، ط1، 2007، ص 153.
- 5- فيليب بلاتشييه، فيليب بلاتشييه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة: صابر حباشة، دار الحوار، سوريا، ط1، 2007، ص 153.
- 6- محمد يونس علي، المعنى وظلال المعنى، دار المدار الإسلامي بيروت، لبنان، ط2، 2007، ص. 161
- 7- Halliday.M.A.K ∞ R.Hassan, language, contexte and text. 23
- 8- فولفجانج هاين & فيفيجر: مدخل إلى علم لغة النص، ترجمة فالح بن شيب العجمي، ص 120-123.
- 9- المرجع نفسه، ص. 84
- 10- جون سيرل: القصيدة - بحث في فلسفة العقل-، ترجمة: د. أحمد الأنصاري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ص. 203
- 11- جون سيرل: المرجع عينه، ص 21، وص. 24. وينظر: ديتير فيفيجر وولفجانج هاين منه، مدخل إلى علم اللغة النصي، ص. 143.
- 12- ابن طباطبا، عيار الشعر، ص 41-43.
- 13- احمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص. 211
- 14- بول ريكور، نظرية التأويل- الخطاب وفائض المعنى، ص. 64. وينظر: دون إهده، المرجع نفسه، ص. 170
- 15- Paul Ricœur; du texte à l'action, P109
- 16- المرجع نفسه، ص 77.
- 17- عاطف احمد الدرابسة، قراءة النص الشعري الجاهلي، ص 96.
- 18- حاتم الصك، ترويض النص، ص 109.
- 19- مصطفى ناصف، اللغة و التفسير و التأويل، ص. 75
- 20- أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ج1، ص. 55
- 21- ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص 32.
- 22- بول ريكور، نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط/2، 2006، ص. 39.
- 23- بول ريكور، نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى، تر: سعيد الغانمي، ص. 51.
- 24- محمد بن عياد، في المناهج التأويلية، دار التفسير الفني، بصفاقس، تونس، ط1، 2012م، ص. 21.